جانبا وظلالاً فى النقد والإبداع ، وأن تؤخذ المسائل بقدر من الأناة والروية والجد فى تأمل العمل الفنى من كل جوانبه ، على النحو الذى قد نجد له نظائر فى المعالجة النقدية التى أخذ بها الأستاذ العقاد نفسه ، وبما سجله من لمحات مَحْوَرها تركيزه على هذا الكد الذهني كضرورة للإبداع والنقد معاً ، أى لطرفى الحياة الأدبية جميعا ، وهو ما عرض له فى دراساته - كما قلنا - حول ابن الرومى والحسن بن هانئ ، وعمر بن أبى ربيعة ، وغيرها من دراسات للشخصيات الأدبية أو الظواهر ، بما لايتجاهل - لحظة ما - طبيعة الفن فى دراسة جماليات النص الشعرى ، وهو المنهج الذى يجمع بين التحليل النفسى والاجتماعى ، وبين تأمل التشكيل الداخلى للغة النص وصوره وما يشيع فيه من الخيال الصوتى ، إلى جانب التأريخ له، وتحديد الأعماق المعرفية التى تكشف فلسفة المبدع وجوهر الإبداع .

ويبقى مُلِحًا أن نتأمل - طويلا - تلك النظرات بما فيها من أناة الموقف النقدى الهادئ، بعيدا عن الاندفاعات السريعة التى تأخذ فقط بمنطق الأحكام ، مما قد ينتهى إلى تناقضات غير مقبولة ، لأنها إنما تسئ إلى تراثنا وثقافتنا المعاصرة فى آن واحد .

ولعل أصحاب هذه الرؤى من ذوى الخبرة الطويلة سواء على المستوى النظرى ، أو التطبيقات التحليلية قد أسهموا بشكل فعال فى إيجاد رصيد نقدى متميز يمكن تحليله وتأمله ، والأخذ بجوانبه المتعددة بشرط أن تكون وقفتنا بارزه عن ملامح الأصالة كما يفرضها الحس التراثي والحس الحضارى معا فى لحظة المزاوجة الهادئة والاتساق النفسى بينهما .

كما تبقى الدراسة النقدية الدقيقة قادرة على أن تشمل كل هذه المواقف لتجعل من صوره الناقد شخصا هادئا متزنا ، لايفتقر إلى المعرفة أو امتلاك الأدوات ، بقدر ما يصدر عنها فى التعُّرف علي أي أثر أدبى من خلال مبدعه ، وعصره ومجتمعه وتراثه ، مما قد يسهم فى إيجاد حلول لمشاكل كبرى قد تواجهنا لدى بعض شعرائنا القدامي فى فترات حرجة من تاريخنا الأدبى على النحو الذى يلقانا فى الأحكام حول شعر حسان - مثلا - وما شابه من حوار خمري فى عصر صدر الإسلام ، كأن النقد تناسى أو تجاهل - أو لعله تغافل - ما يمكن للشاعر أن يستعمله بوحي الذاكرة ، والكشف اللاشعورى - في الأغلب - مما يصور لحظة من لحظات ذلك المدّ الشعوري عما يعتلج في وجدانه وما يجري فى مسارب أفكاره ، وعن صفات الأشياء والمحسوسات والأحداث التى لم يلحظها أو يتذكرها ، وربما كان هذا أبيْنَها جميعا وأهمها فى ساحة الموروث والإبداع .